سياسة الأمويين:

بويع بالخلافة للحسن بن علي بعد مقتل أبيه، فحاول أن يحارب معاوية، وهو أيضًا خليفة مبايع، ورأى من تخلف القوم عن نصرته أنهم لا يتوقفون عن خذلانه عند الحاجة - كما خذلوا أباه من قبل - واستنفر الأحنف بن قيس من جماعة أبيه، فقال: قد بلونا الحسن وآل الحسن، فلم تكن عندهم إيالة الملك، ولا صيانة المال، ولا مكيدة الحرب، واتفق أنّ أحد شيعته طعنه ذات يوم في جنبه فصرعه عن فرسه، فكان ذلك أحد أسباب مصالحته معاوية، فنزل عن الخلافة بعد أن خطب له بها نحو ستة أشهر في العراقين العربي والعجمي وخراسان وجزيرة العرب، مشترطًا أن يكون ولي عهد معاوية من بعده،[١] وألا يأخذ معاوية أحدا من آل الحسن بإحنة،[٢] وأن يؤمن الأسود والأحمر ويجعل له خراج الأهواز مسلمًا في كل عام، ويحمل إلى أخيه الحسين بن علي كل سنة ألفي ألف درهم، ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس، فبذل معاوية له العهود المؤكدة على ذلك، وأعطاه كل ما طلب إلا ما كان من لعن أبيه على المنابر، ودخل الحسن في طاعته، فحقن بذلك الدماء، وحمد فعلته العقلاء، وأكبرت شيعة الحسن أمر هذا الصلح، ولم يسعها إلا أن تحمله على محمل الخير؛ لاعتقادهم بعصمة آل البيت في كل ما يصدر من أقوالهم وأفعالهم، لا يسألون عما يبدر منهم.

وكان أهل الشام بايعوا معاوية بالخلافة في سنة ٣٧ حين تفرق الحكمان، كما بايعوه على الطلب بدم عثمان، فلما تنازل الحسن عن الخلافة بويع له بإيلياء سنة ٤٠ مبايعة عامة أخرى، وسمي هذا العام عام الجماعة؛ لاجتماع الأمة على إمام واحد، وكان معاوية يدعى بالشام الأمير فلما قُتل علي دعي أمير المؤمنين،[٣] وغدا يسوس بلاد الإسلام كلها بسلطانه مباشرة، وكان بالأمس يسوس بعضها تحت سلطان أعظم من سلطانه.

---

(١) دول الإسلام للذهبي.

(٢) الأخبار الطوال للدينوري.

(٣) تاريخ الطبري.

أحسن معاوية تأليف القلوب، واستخدم العصبيات لما فيه مصلحة الدولة، وكان كلما زاد قوة انقطعت آمال الطامعين في الخلافة، المشاغبين على السلطان، فاستخدم الشعراء في تأييد دعوته كما يستخدم رجال السياسة اليوم أرباب الصحف والإذاعات لمثل هذا الغرض، ويرسل الوعاظ إلى الآفاق ليحولوا القلوب عن علي، عدا ما كان يخطب به وعماله في علي على المنابر ينفر القلوب منه، وكانت العراق أضعف جزء في ملك معاوية فرمى أهلها بأخيه زياد، وكان هذا من عمال علي فانضم بعد موته لأخيه، فجاء زياد والعراق تغلي مراجله بالفتن، يوقد نارها أرباب الشغب، فسل الأحقاد وداوى الأدواء، وتولى العراق بعد زياد ابنه عبيد الله فاشتد على الخوارج، فقتل منهم صبرًا جماعة كثيرة، وحاربهم حتى كاد يفنيهم، وكانوا قاموا لأول خلافة معاوية فعفا عن بعضهم، ثم ثار آخرون فقتلهم، وسكنت نأمة الشيعة وأصبحت دعوتهم سرية.

وأهم ما عاناه معاوية من مسائله الخارجية غزو الروم، وكان اعتاد غزوهم منذ كان أميرًا، ووصلت جيوشه إلى القسطنطينية وإلى بحر هيجاي (إيجه)، وإلى سواحل بحر الروم ومنها جزيرة صقلية، وكان ألح على عمر في خلافته بغزو البحر، فما جاء دور عثمان حتى كان للشام أسطول عظيم، فصير عثمان إلى معاوية غزو الروم، على أن يوجه من رأى على الصائفة،[1] وفتح قبرص ورودس وأرواد وغيرها من الجزر، وفتح السودان وصالح الروم في سنة ٤١ على مائة ألف دينار، وكانوا جمعوا جموعا كثيرة فخاف أن يشغلوه عن تدبير بلاده وإحكام أمره، وهو أول من صالح الروم، فلما استقام له الأمر أغزى أمراء الشام على الصوائف، فسبوا في بلاد الروم سنة بعد سنة، حتى طلب صاحب الروم الصلح على أن يضعف المال فلم يجبه، واستولى الروم على جبل لبنان في السنة السابعة عشرة من خلافته بمعاونة الجُراجُمة،[2] فاضطر لعقد معاهدة مع الروم (سنة ٥٧) صعبة الشروط عليه؛ وذلك ليدفع غائلة أسطولهم عن بلاده.

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) الجراجمة أهل مدينة كانت على جبل اللكام بالثغر الشامي قرب أنطاكية، يقال لها الجرجومة (بضم الجيمين)، صولحوا أول الفتح على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح في جبل اللكام، وألا يؤخذوا بالجزية، وأن ينقلوا أسلاب من يقتلونه من أعداء المسلمين إذا حضروا معهم حربا،

رأى معاوية في سنة ٥٦ أن يجعل ولاية العهد لابنه يزيد من بعده، فكان هذا الوضع الجديد في أساس الملك مما استفظعه بعضهم؛ لأنه كان في الصحابة أفراد يليقون للخلافة أكثر من يزيد، وعير معاوية خصومه أنه جعل الخلافة كسروية وقيصيرة؛ أي جعلها وراثية وما كانت بها، أو كما قال مروان بن الحكم: جئتم بها هرقلية تبايعون لأبنائكم، بيد أن معاوية كان يرى هذا التدبير على ما فيه من غمط حقوق الكفاة للخلافة، أضمن لسلامة الدولة وتتقى به شرور قد تستطير بين الناس كلما مات لهم خليفة، أو قوي أعداؤه فأرادوا استلاب الخلافة منه، ويخشى إذا ظل المسلمون على تناحرهم أن يجمع أعداؤهم شملهم، ويعيدوا الكرة عليهم في صميم جزيرة العرب، والله أعلم ما تكون النتيجة على الإسلام والمسلمين.

بوضع قانون ولاية العهد في الإسلام بعض الحيطة التي تنجي من انقسام الكلمة، وقد يخطئ رأس الملة في توليته من يريد، وربما قل في رجال الخليفة، أو من اصطنعهم لخدمته من يسعهم الإنكار عليه، أو إرجاعه إلى الصواب إن أخطأ، والعهد للأبناء أو الأخوة أو أبناء العم على شرط الكفاية في الجملة، أقرب إلى سلامة الدولة من فتنة تنشب بين الأحزاب أو أصحاب العصبيات، وكل حزب يرشح خليفته بالحق والباطل، حتى لا يكاد يجد الصالح من المستخلفين، أدنى مما يجد الطالح من المعونة

=

فكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى، فيكاتبون الروم ويمالئونهم على المسلمين، ولما شُغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير خرج قوم منهم إلى الشام مع ملك الروم، فتفرقوا في نواحي الشام، وقد استعان المسلمون بالجراجمة في مواطن كثيرة أيام بني أمية وبني العباس، وأجروا عليهم الجرايات وعرفوا منهم المناصحة. هذه خلاصة ما قاله ياقوت في معجم البلدان أخذا من البلاذري. ويقول ابن عساكر في تاريخ دمشق: إن طاغية الروم لما رأى ما صنع الله للمسلمين من منعة مدائن الساحل، كاتب أنباط - الأنباط هم السريانيون - جبل لبنان واللكام، فخرج الجراجمة وعسكروا بالجبل، فغلبت الجراجمة على جبال الشام كلها من لبنان وسنير، وجبل الثلج (حرمون)، وجبال الجولان، وسمي الجراجمة بالمردة؛ أي العصاة لعصيانهم أمر ملك الروم في عدم التعرض للعرب.

والمظاهرة، ولو كان مرجع هذه الولاية أرباب الرأي في الأمة فقط؛ أي أهل الحل والعقد كما اشترط في توسيد الخلافة لكان في ذلك الخير كله.

ثم إن حصر السلطات الدينية والمدنية في يد الخليفة أو الملك يخرج الأمر مهما تلون اسمه بالأسماء المختلفة عن أحكام الشورى ويعيده استبدادًا. والشورى حياة الممالك والشعوب، ومن النادر ظهور رجل سلمت نفسه من العيوب واستجمع شروط الخلافة، فما توخى غير مصلحة الناس والدولة كأبي بكر وعمر.

وفي الحكومة الملكية عيوب، وفي الحكومة المقيدة عيوب، وفي الحكم «الأتوقراطي» الديني عيوب، وفي الحكم «الديمقراطي» الشعبي أو الجمهوري عيوب، ولقد كثرت أخطاء الجمهوريات في آثينة ورومية في العهد القديم، وفي جمهوريات الدول الحديثة المقيدة بالأنظمة الدستورية، فنسب الخير والشر إلى من تضامنوا من أهل شوراها على القيام بأمر الأمة؛ أي إنه يخطئ في الحكم الجمهوري أو النيابي مجموع مختار في الجملة من أبناء البلاد، ولا يكون الخطأ خطأ فرد بمحض إرادته كما هو الشأن في الحكومات المطلقة الاستبدادية.

قلنا: إن خصوم معاوية نالوا منه بعهده لابنه يزيد، وفي الأمة بقايا رجال من الصحابة أعظم مكانة وسابقة منه، وكان من المتعذر توسيد الخلافة إليهم؛ لأنهم ضعاف في عصبيتهم، بالقياس إلى أرباب العصبيات الكبرى كعصبية الأمويين في ذاك العهد، ويخشى إذا استخلفوا أن يشغلوا بالدفع عن أنفسهم فتضيع المصلحة العامة، كما جرى في عهد الخليفة الرابع، ولما تم الأمر ليزيد أخذ بعض الطامعين في الخلافة وأتباعهم، وقد رأوا حرص معاوية على حمل بعض الصحابة والتابعين على مبايعة ابنه بعده، يتقولون على يزيد ويرمونه بالكبائر، ويسقطون منزلته ويصغرون شأنه، وما كان يزيد كما قال ابن تيمية مظهرًا للفواحش كما يحكي خصومه، ولا كان من الصحابة، ولا من المشهورين بالدين والصلاح، وكان من شبان المسلمين، ولا كان كافرا ولا زنديقًا، وتولى بعد أبيه العهد على كراهية من بعض المسلمين، ورضا من بعضهم، وكان فيه شجاعة وكرم، وكان أبوه يشركه في مشورته، ويأخذ برأيه أحيانًا في تدبير الملك

وسياسته، وقد أغزاه الروم فبلغ أسوار القسطنطينية، وكثيرا ما بعث همته على العمل وعلمه وثقفه، وغاية ما ثبت عنه أنه كان به رسلة يحب الراحة ويدرب كلابًا للصيد.

كان يُرجى بعد استقرار الخلافة أن يُطوى حديثها، خصوصا وقد رضي السبطان بحظهما من الدنيا، ولكن أهل الكوفة بعد أن خذلوا عليًا وابنه الحسن، عادوا يزينون للحسين بن علي الرحيل إليهم؛ ليعاونوه على إخراج الأمر من يزيد فاغتر بهم، فلما بلغ كربلاء غدروا به، وصاروا مع عبيد الله بن زياد عامل يزيد، حتى قتل الحسين وأكثر آله بكربلاء، فأكبرت الأمة هذه المصيبة وراحت شيعته وقد خذلته في حياته، تستغل مقتله بعد مماته، وعظم حظ يزيد من اللعن والطعن مع أنه لم يأمر بقتل الحسين،[1] ولا أظهر الفرح بهلاكه، ولكن أمر بدفعه عن الأمر ولو بقتاله، ولما سمع يزيد ما تم على الحسين دمعت عينه[2] وقال: ويحكم! قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه، وكان بلغ معاوية في حياته أن الحسين في آخر أيامه كان يتهيأ لشق عصا الطاعة فكتب إليه: «أما بعد، فقد انتهت إلي أمور عنك لست بها حريا؛ لأن من أعطى صفقة يمينه جدير بالوفاء، فاعلم رحمك الله أني متى أنكرك تستنكرني، ومتى تكدني أكدك، فلا يستفزنك السفهاء الذين يحبون الفتنة.»

والحسين ما تحلل في الحقيقة من مبايعة معاوية إلا بموته حتى إذا خلفه ابنه خالف عليه.

وصح ما تنبأ به معاوية فيما قاله لابنه يزيد قبيل موته، قال: إني لست أخاف عليك إلا أربعة رجال: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير. فأما الحسين بن علي فأحسب أن أهل العراق غير تاركيه حتى يخرجوه، فإن فعل فظفرت به فاصفح عنه، وأما عبد الله بن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة، وليس بطالب للخلافة، إلا أن تأتيه عفوا، وأما عبد الرحمن بن أبي بكر فإنه ليس في نفسه من النباهة والذكر عند الناس ما يمكنه من طلبها، ومحاولة التماسها، إلا أن تأتيه عفوا، وأما

---

(١) الوصية الكبرى لابن تيمية.

(٢) الأخبار الطوال للدينوري.

الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك روغان الثعلب، فإن أمكنته فرصة وثب، فذلك عبد الله بن الزبير، فإن فعل وظفرت به فقطعه إربًا إربًا، إلا أن يلتمس منك صلحًا، فإن فعل فاقبل منه، واحقن دماء قومك بجهدك، وكف عاديتهم بنوالك، وتغمدهم بحلمك.

وكان أن امتنع عبد الله بن الزبير في الحجاز من بيعة يزيد بن معاوية، ووافقه كثير من أهل المدينة، وفيهم بعض المهاجرين والأنصار، على خلع طاعة يزيد، وأخرجوا نوابه وأهله من المدينة، فأرسل يزيد عليهم جيشًا، وأمر قائده إن لم يطيعوه بعد ثلاث، أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثا، ووقعت الحرب وأبيحت المدينة في هذه الوقعة التي سميت بوقعة الحرة نسبة لحرة المدينة، وقتل من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الناس ألف وسبعمائة، ومن سائر الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان، وكان معاوية أوصى ابنه يزيد عند موته بقوله: انظر أهل الحجاز فهم عصابتك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعاهده، وانظر أهل العراق فإن سألوك عزل عامل كل يوم فاعزل له عنهم، فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف، ثم لا تدري علام أنت عليه منهم، ثم انظر أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار، فإن رابك من عدو ريب فارمهم به، فإن أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى بلادهم، لا يقيموا في غير بلادهم فيتأدبوا بغير آدابهم.

واعتصم عبد الله بن الزبير بمكة، ومات على الأثر يزيد، فاستخلف ابنه معاوية فلبث شهرين لا يخرج إلى الناس، ثم خطبهم فقال: إني نظرت فيما صار إليّ من أمركم، وقلدته من ولايتكم، فوجدت ذلك لا يسعني فيما بيني وبين ربي أن أتقدم على قوم وفيهم من هو خير مين وأحقهم بذلك، وأقوى على ما قلدته، فاختاروا مني إحدى خصلتين: إما أن أخرج منها وأستخلف عليكم من أراه لكم رضا ومقعنا، ولكم الله عليّ لا آلوكم نصحًا في الدين والدنيا، أو أن تختاروا لأنفسكم وتخرجوني منها، وقال: قد ضعفت عن أمركم ولم أجد لكم مثل عمر بن الخطاب لأستخلفه ولا مثل أهل الشورى، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا من أحببتم، وطعن معاوية الصغير بعد أيام، فخاف بنو أمية أن يخرج الأمر عنهم، وعبد الله بن الزبير يقوي سلطانه في الحجاز، وتنتشر دعوته في الشام سرا، فدخلوا عليه فقالوا له: استخلف على الناس من تراه لهم منا،

فقال لهم: عند الموت تريدون ذلك، لا والله لا أتزودها، ما سعدت بحلاوتها، فكيف أشقى بمرارتها، ثم جاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية فتورع أن يستخلف على صغر سنه.

وكان الناس لما مات يزيد بايعوا بمكة ابن الزبير بالخلافة وبايع له أهل العراق والحجاز واليمن ومصر، وبايع له[1]سرا بالشام الضحاك بن قيس، وبايع له بحمص النعمان بن بشير، وبايع له بقنسرين زفر بن الحارث الكلابي، وكان مروان بن الحكم بعد رحيله من الحجاز أيام ابن الزبير أقام بالشام، واجتمعت إليه بنو أمية، وصار الناس بالشام فرقتين: اليمانية مع مروان، والقيسية مع الضحاك بن قيس، وهم مع ابن الزبير، فاجتمع بنو أمية على عقد الأمر لمروان، وهو «شيخ مجرب بقية بني أمية في وقته»، فضرب مروان القيسية بمن كان مع الأمويين من اليمانية بمرج راهط من أرض دمشق فغلبهم، ودخل الفيحاء فقعد مقعد الخلافة.[2]

قال المسعودي: وكانت وقعة مرج راهط سبب ملك بني أمية، وقد كان زال عنهم إلى بني أسد بن عبد العزى؛ ولذلك رأى قوم أن مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف، وعزي إلى عبد الملك بن مروان قوله:

إنـــي أرى فتنـــة تغلـــي مراجلهـــا والملـك بعـد أبـي ليلـى لمـن غلبـا

وأبو ليلى هو معاوية بن يزيد بن معاوية، وجعل الأمر بعد مروان لخالد بن يزيد بن معاوية، ولعمرو بن سعيد الأشدق، وبذلك انتقلت الخلافة إلى بني مروان، وخرجت عن آل أبي سفيان، وكلهم أمويون، وكلهم بنو عبد شمس، تولاها من تأهل لها من هذا البيت، وظل عبد الله بن الزبير خليفة يخطب له في الحجاز واليمن والعراق ومصر وفارس، وأول ما اتجهت له همة مروان الاستيلاء على مصر من ابن الزبير، وامتدت حدود البلاد الإسلامية في أيام مروان إلى نهر كور أكبر أنهار القوقاز، ودخلت بعد حين بلاد الكرج وطاغستان وشركسستان في حظيرة الملك الأموي، ولما هلك مروان اجتمع

---

(١) تاريخ أبي الفداء.

(٢) الإمامة والسياسة المنسوبة لابن قتيبة.

الناس على ابنه عبد الملك، فقال لهم: إني أخاف أن يكون في أنفسكم مني شيء فقام جماعة من شيعة مروان، فقالوا: والله لتقومن إلى المنبر أو لنضربن عنقك، فصعد المنبر فبايعوه، ولم يختلف عليه أحد من قريش لما عرفوا من صدقه وعلمه، ولما وصل عبد الملك إلى العراق لإرجاعها إلى الأمويين وثب بدمشق عمرو بن سعيد الأشدق، وكان من أحب الناس إلى أهل الشام يسمعون له ويطيعون، فدعا إلى نفسه بالخلافة واستولى على دمشق، فرجع إليه عبد الملك ولاطفه وراسله، وحلف له أن يكون الخليفة من بعده، وألا يقطع شيئا دونه ولا ينفذ أمرا إلا بمحضره ثم قتله، وكان مصعب بن الزبير الذي قاتل الجيوش الأموية في العراق فقتله عبد الملك، من أحب الناس إلى عبد الملك وأشدهم له إلفًا ومودة، وقال في الاعتذار عن قتله: «ولكن الملك عقيم.»[1]

وقام المختار بن أبي عبيد الثقفي يدعي الطلب بثأر الحسين، فقتل عبيد الله بن زياد وتمزق أكثر جند الشام، وكانوا أربعين ألفًا، فغلب المختار على الكوفة وأباد قتلة الحسين، وبعد حين قتل مصعب بن الزبير المختار وجميع رجاله وكانوا سبعة آلاف، وقضى الحجاج في ولايته العراق على ابن الأشعث، وكان ادعى الخلافة، وذلك بالقرب من دير الجماجم في ثمانين وقعة تواقعاها، وابن الأشعث في جيش أعظم من جيش الحجاج، ولكن ليس له عقل الحجاج ولا حزمه، وانهزم ابن الأشعث وأنصاره من أهل العراق، ولم يكن[2] بعد وقائع صفين أعظم من هذه الحروب.

لما أمن الخليفة جانب العراق وبايعه أهلها بالخلافة، رمى الحجاز بالحجاج ليقضي على ابن الزبير وخلافته، فكان ذلك بعد حروب أهرقت فيها الدماء، وبمقتل ابن الزبير صفت الحجاز واليمن وفارس للخليفة الأموي، فصفت بها بلاد الإسلام، وقضى عبد الملك على الأزارقة من الخوارج في فارس، وعلى الروم والبربر في إفريقية، وعاهد الروم ثم نقضوا عهده،[3] وظلوا على عدائهم طول أيامه، وعلى كثرة ما قتل من

---

(١) الملك عقيم: أي لا ينفع فيه نسب؛ لأنه يقتل في طلبه الأب والولد والأخ والعم، سمي به لقطع صلة الرحم بالتزاحم عليه.

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودي.

(٣) معلمة الإسلام، عبد الملك.

المسلمين في غزوات الروم في أرجاء إرمينية وآسيا الصغرى، كان الروم يخافون المسلمين لتهديدهم بلادهم، والمسلمون يخافون الروم؛ لأنهم كانوا حتى في حال الضعف لا تؤمن غوائلهم على بلاد المسلمين، وظلت هذه الحروب محتدمة إلى أيام ابنه الوليد وردد أقصى الغرب النصراني صداها.

يقول سترستن: إن غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد الأشدق وقسوته عليه، يلقي شيئ ا على شخصية عبد الملك، والظاهر أن عمله كان شاذًا، وأن هناك أسبابا قاهرة حملته في مثل هذا الموقف على ما أتاه، ليقضي على الفتوق التي كانت ظاهرة في كل مكان. قال: ومن الثابت أنه

ليس في خلفاء بني أمية من يدانيه في الاضطلاع بأساليب الحكم، وكان يحرص[1] على أن يكون ولاته ممن ينفذون أمره، ولا يفكرون إلا في إرضاء الخليفة والفناء فيه، على طريقة الحجاج والمهلب في سياسة الدولة لا ينظرون إلا إلى مصلحة الملك، والمهلب بانضمامه إلى عبد الملك بعد أن كان مع ابن الزبير، كزياد بانضمامه إلى معاوية بعد أن كان مع علي، وما كان عبد الملك يطلق الحرية لغير أخيه عبد العزيز والي مصر وكانت له طعمة، ومصر كانت تتمتع منذ عهد عمرو بن العاص بشيء من الاستقلال، ويرعاها الأمويون رعاية خاصة؛ لأنها طريقهم إلى شمال إفريقية وإلى ما وراءها، ولكونها برأسها مملكة عظيمة غنية.

غزا عبد الملك الروم مرارًا برًا وبحرًا، وصالحهم مرة لاضطراب البلدان عليه، وحمل إليهم أموالا كثيرة حتى انصرفوا عن المصيصة على أن تكون الهدنة عشر سنين، ويخرج الروم الذين كانوا في جبل لبنان من آخر أيام معاوية فيؤدي عبد الملك إليهم في كل يوم ألف دينار وفرسا ومملوكا، على أن يكون خراج قبرص وإرمينية مشتركا بين الروم والعرب، ثم أخذ ملك الروم اثني عشر ألف مقاتل من المردة أو الجراجمة في جبال الشام إرضاء لعبد الملك، وكان صالح الروم (٧٠ه) لأول خلافته على أن يؤدي إليهم في كل جمعة ألف دينار، وكانوا طمعوا في الشام، وهو موزع الفكر بمسائل عمرو

---

(١) معلمة الإسلام، الأمويون.

بن سعيد، ومصعب بن الزبير، وعبد الله بن الزبير، وليس من الحزم أن يحارب حربين داخلية وخارجية في وقت واحد، وفي أيامه وصل من الروم موريق وموريقان (٥٧٥م) وحلما بجيشهما على دير القديس مارون في جهات حماة من الديار الشامية، وقتلا خمسمائة راهب، ثم تحولا إلى قنسرين والعواصم فقتلا الأهلني ونهبا وخربا المساكن، ولم يعفيا عن أحد من الموارنة، وخضعت لهم بلاد الكورة في لبنان، ثم قوي الجبليون على عساكر الروم، وقتلوا أكثرهم وانهزم الباقون.

وصف الجاحظ عبد الملك فقال فيه: «كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأيًا وحزمًا، وعابدها قبل أن يستخلف ورعًا وزهدًا»، ويعد في العلماء العاملين كما هو من أكبر الساسة، ويشبه عبد الملك معاوية بحزمه وسياسته، وما كان يدهش لما يحل به من المفظعات،[1] وكان من جملة وصيته لأولاده أن يعطف الكبير منهم على الصغير، وأن يعرف الصغير حق الكبير، وحذرهم البغي والتحاسد، وأوصاهم بأخيهم مسلمة، وأن يصدروا عن رأيه، وأن يكرموا الحجاج، فإنه هو الذي وطأ لهم هذا الأمر.

وعمل زياد بن أبي سفيان وخالد القسري وقتيبة بن مسلم وأمثالهم من رجال بني أمية، لا يقل عن أعمال الحجاج في سياسة الدولة، وكانوا كلهم «قطب[2] الملك الذي عليه مدار السياسة ومعادن التدبير، وينابيع البلاغة، وجوامع البيان، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها، وخزموا الأنوف حتى سكنت شواردها، ومارسوا الأمور، وجربوا الدهور، فاحتملوا أعباءها، واستفتحوا مغالقها، حتى استقرت قواعد الملك، وانتظمت قلائد الحكم، ونفذت عزائم السلطان.»

وأريد عبد الملك على أن يعهد لابنيه الوليد وسليمان فأبى؛ لأن البيعة كانت لأخيه عبد العزيز، وكان عبد الملك لا يفضل عبد العزيز في شيء إلا باسم الخلافة، وهو نظير عبد الملك في الحزم والعقل، ومات عبد العزيز فعهد عبد الملك إلى ولديه الوليد، ثم

---

(١) الأمور الشديدة الشينعة.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه.

سليمان بالخلافة، وكانت أيام الوليد خالية من المشاغل الداخلية في الجملة، والعمران يعظم والفتوح سائرة على ساق وقدم.

فتح بلادا في أرض الترك والروم والهند وأعظم ما فتح الأندلس، وجاء فاتحها موسى بن نصير إلى دمشق في طائفة من أبناء ملوك البربر والجزائر والروم والإسبان والإفرنج، يلبسون تيجانهم وهم في حالة الأسر، وسئل فاتح الأندلس في حضرة الخليفة سليمان عن حال تلك الأمم التي افتتح بلادها فقال: إن الروم[١] أسود في حصونهم، عقبان على خيولهم، نساء في مواكبهم، إن رأوا فرصة افترصوها، وإن خافوا غلبة فأوعال ترقل[٢] في أجبال، لا يرون عارا في هزيمة تكون لهم منجاة.

وقال عن البربر: إنهم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا، وفروسية وسماحة وبادية غير أنهم غدر. وقال عن الإسبان: إنهم ملوك مترفون، وفرسان لا يجبنون. ووصف الإفرنج: بأن هناك العدد والعدة، والجلد والشدة، وبين ذلك أمم كثيرة ومنهم العزيز ومنهم الذليل، وكل قد لقيت بشكله فمنهم المصالح ومنهم المحارب، وما عامل الخليفة سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير ولا قتيبة بن مسلم بما يستحقان لما قدما من خدمة الدولة؛ فقد قتل قتيبة بن مسلم فاتح خوارزم وسمرقند وبخارى، وضارب الجزية على ملك الصين؛ لأنه أظهر الخلاف وأثار الجيش على الخليفة فيما قيل، وقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير توهما منه أنه يستقل بالأندلس، وبعث سليمان إلى الروم بأخيه مسلمة بن عبد الملك وعمر بن هبيرة فلقيا جهدا وفتحا بعض مدن الروم، وكان أول من ضرب بسيفه باب القسطنطينية وأذن في بلاد الروم أحد بني عامر بن صعصعة، وكان مع مسلمة فأراد قيصر قتله فقال: والله لئن قتلتني لا تبقى بيعة في بلاد الإسلام إلا هُدمت.[٣] ومن أهم ما عمله سليمان عهده لابن عمه عمر بن عبد

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة.

(٢) أرقلت الناقة إرقالا أسرعت في سيرها، والوعل بكسر العين الأروى وجمعه وعول وأوعال، والأروية بالضم والكسر الأنثى من الوعول، وثلاث أراوي على أفاعيل، فإذا كثرت فهي الأروى على أفعل بغير قياس.

(٣) المعارف لابن قتيبة.

العزيز بالخلافة ومن بعده لأخيه يزيد، وذلك بإشارة وزيره رجاء بن حيوة، فدل على بعد نظر، وحب الخير للأمة، فدعي مفتاح الخير، ولم يكد عمر بن عبد العزيز يقبض على زمام الخلافة حتى استدعى من الروم جيش المسلمين لما لقوا من الجهد، وطلب إلى عامله على الأندلس أن يرسم له مصورها؛ لأن المسلمين هناك محاطون بالأعداء، بعيدون عن مقر الخلافة، وكان من رأيه أن يجليهم عن أرضها، وكتب إلى عامله في بلاد ما وراء النهر بإقفال المسلمين بذراريهم إلى البلاد التي أظلها سلطان العرب منذ سنين، قائلا: حسب المسلمين الذي فتح الله عليهم؛ ذلك لأن عمر بن عبد العزيز كان يضن بدماء قومه، ولا يحب التوسع في الفتوح، ويحرص على إصلاح البلاد وأهلها، وفي أيامه سكنت الخوارج فلم يثوروا، وكان ناقشهم وأفحمهم، وعطف على الطالبيين ووسع عليهم، فكانوا عنه راضني، وأبطل لعن أبي تراب علي بن أبي طالب من منابر الإسلام، وكان بنو أمية يسبون عليا من سنة إحدى وأربعين، وهي السنة التي خلع فيها الحسن نفسه من الخلافة. وكانت علاقة عمر مع الروم سلمية، ولما بلغ صاحب القسطنطينية نعيه نزل عن سريره وبكى، وذكر من مآثر عمر أمام وفد من العرب - كان ذهب للفداء بين العرب والروم - ما أبكى المقل، ومما قال: لقد بلغني من بره وفضله وصدقته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطنًا وظاهرًا، فلا أجد أمره مع ربه إلا وأحدًا، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعة، ولكني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها، حتى صار مثل الراهب.[1] أعاد عمر للخلافة جمالها وجلالها، على ما كانت عليه أيام جده لأمه عمر بن الخطاب، ولكن ابن عبد العزيز عمل في زمان غير زمان ابن الخطاب، وبرجال غير رجاله، وكان دأبه أن يذكر الناس بالآخرة، ويخوفهم من العذاب، ودأب جده أن يذكرهم العمل للدنيا، مع شدة التمسك بحقوق الأخرى، فسياسة عمر بن الخطاب

(١) مروج الذهب للمسعودي.

ملائمة لزمانه، وسيرة سبطه كذلك، هذا والناس في آخر القرن الأول قد فسدوا أو بدءوا بالفساد.

عمل عمر أعمالًا عظيمة في خلافته القصيرة، وهي سنتان وخمسة أشهر، وهذا من أعجب ما يدون في تاريخ عظماء الأرض، ولو لم يتقيد بعهد سلفه سليمان بن عبد الملك ليزيد بن عبد الملك، لعهد إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر، أو إلى إسماعيل بن عمرو بن سعيد الأشدق، لما كان يعرف من غنائهما، ولكن حاذر إن أقدم على ذلك أن يغضب بني أمية، وكان بعضهم يبطن له الكراهة، وإذا حول الأمر عن المروانيين تقع التفرقة لا محالة.

وكان عمر بن عبد العزيز يشعر أن يزيد بن عبد الملك لا يسير بعده بسيرته، بل يسير بسيرة أخيه على طريقة الملكية المطلقة، يجمع الأموال ويبددها، ويقتل ولو على الشبهة لما يعتقد أن فيه سلامة الدولة، فلما بويع ليزيد أعاد سب علي على المنابر، وأرجع الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل سلفه، وكتب إلى مصر بمنع الزيادة التي كان عمر بن عبد العزيز أمر لأهل الديوان بها فمنعوها،١١٥ [١] وأتاه[٢] قوم من قريش وخيار بني أمية، وكانت قلوبهم قد سكنت إلى هدْي عمر واطمأنت إلى عدله، فاتهم منهم نفرًا بالخلع والخروج فأسكنهم السجن عشرين شهرًا، ثم دس لهم السم فماتوا جميعا، وأقصى من سائر قريش ثلاثين رجلًا، بعد أن صادرهم وعذبهم، وصلب من الناس جملة ممن ألف هؤلاء القوم واتهم بمصانعتهم ومصاحبتهم، وقيل: إن يزيد بن عبد الملك[٣] لما ولي الخلافة قال: «سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز فأتوه بأربعين شيخًا فشهدوا عنده أن الخلفاء لا حساب عليهم ولا عذاب، وكان طائفة من الجهال الشاميين يعتقدون هذا.»

---

(١) الولاة والقضاة للكندي.

(٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة.

(٣) دول الإسلام للذهبي.

كان يزيد بن عبد الملك على غير طريقة إخوته، قرّب القيسيّين وأقصى اليمانيين، خلافا لما جرى عليه أخوه سليمان، وبذلك استهدف لغضب اليمانيين، وهم الكثرة الغامرة في جيوش الشام، وفي أيامه وثب بالبصرة يزيد بن المهلب وتسمى بالقحطاني، ونصب رايات سوداء، وقال أدعو إلى سيرة عمر بن عبد العزيز فقتله أمير العراقين مسلمة بن عبد الملك، وكانت أيضًا ملحمة كبرى عند باب[١] الأبواب التقى الجراح الحكمي وهو والترك فانكسروا بعد قتال عظيم، وكان[٢] يزيد جعل ولاية العهد من بعده لهشام، ثم بدا له أن يبايع بولاية العهد لابنه الوليد، فأقنعه خالد بن عبد الله القسري بالعدول عن ذلك؛ لئلا تقع العداوة والشر بينهم، ويجد الناس السبيل إلى الطعن فيهم والاختلاف عليهم، وصير الوليد ولي العهد بعد أخيه هشام.

وجاء هشام بن عبد الملك يتولى الخلافة، وهو آخر من تولاها من ولد عبد الملك، تولاها هو ويزيد وسليمان والوليد، فلُقب هؤلاء الإخوة الأربعة بالأكبش الأربعة، ولقب والدهم عبد الملك بأبي الأملاك لتولي الخلافة أربعة من أولاده.

تولى هشام فلم يخرج[٣] عليه خارج، ولم يقم عليه قائم، اللهم إلا زيد بن علي في بعض نواحي الكوفة، فقتله ابن هبيرة، فعظم قتله على هشام، وأقصى ابن هبيرة وصادره، وقال الخليفة: إن ابن هبيرة لم يزل مبغضا لأهل البيت من آل هاشم وآل عبد المطلب، وإني ما زلت محبا لهم حتى أموت، وكانت سياسته رشيدة وكتب له التوفيق في فتوحه، وما سارت طريقة الجباية سيرا أحسن من سيرها في أيامه، وكان النظام في الأخذ والعطاء على أتمه، وزعم مؤرخو النصارى[٤] أن هشامًا أتى على ثروة الذميين والمسلمين، فثارت ثورات من تطبيق قوانين الجباية عليهم، وعم البلاد الشقاء والفاقة، وفي أيامه دخل الخوارج إلى الشام، وأعقب ذلك خلل في الجيش، وحاول فان

---

(١) باب الأبواب على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر أحد الثغور الجليلة العظيمة؛ لأنها كثيرة الأعداء الذين حفوا بها من أمم شتى وألسنة مختلفة وعدد كثير.

(٢) تاريخ اليعقوبي.

(٣) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة.

(٤) معلمة الإسلام، هشام.

فلوتن[١] أن يثبت أنّ الجباية كانت فاحشة في عهد الأمويين، وأن من الثورات ما نشب بتأثر تلك المظالم والضرائب، لكن لم يأت ببراهين مقنعة، بل استنتج استنتاجا ضعيفًا واستقرى استقراء ناقصا.

ويقول الطبري: إنه كان لا يدخل بيت مال هشام مال حتى يشهد أربعون قسامة أنه أخذ من حقه، وأعطي لكل ذي حق حقه، ومن كان هذا شأنه في أخذ ما حل له كيف يستحل أخذ أموال الذميين والمليين بالباطل، ولكن من الرعية من لا يرضيهم شيء حتى ولو عفوا من كل ضريبة.

قال أرباب السير من العرب: إن السواس ثلاثة في بني أمية، وهم معاوية وعبد الملك وهشام، وبه ختمت السياسة وحسن السيرة، وأجمعوا على أنه لم يكن في بني أمية ملك أعظم من هشام، أخذ الجزية من الروم والفرس والترك والفرنج والزنج والسند والهند، ولم يجترئ أحد معه على ظلامة، وهو «رجل محشو عقلا»، وغزا هشام الروم عدة غزوات موفقة، وكان الأسطول يشترك مع الجيش البري من اليابسة، وذلك بقيادة ابنيه معاوية وسليمان، وأسر قسطنطين ملك الروم،[٢] وتقدمت جيوشه في الشرق فغزا الترك وفتح الفتوح العظام.

وأتت نوبة الوليد بن يزيد لتولي الخلافة، فعقد لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده، وأساء السيرة وانتحى على أهله وجماعة من قريش، وأحدث الأحداث العظيمة وسفك الدماء، وقتل خالدًا القسري فأغضب اليمانية، واشتد على بين هشام وأضر بهم، وضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغرّبه إلى عمان، وحبس يزيد بن هشام، فرماه بنو هشام وبنو الوليد، وكان أشدهم قولا فيه ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وكان الناس إلى قوله أميل؛ لأنه كان يظهر التنسك[٣]

---

(١) السيادة العربية لفان فلوتن، تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم.

(٢) تاريخ محبوب بن قسطنطين المنبجي.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه.

فألحت عليه القدرية، وكان قدريا يرى رأي غيلان، وقالوا له: لا يحل لك إهمال أمر الأمة، وأجابته اليمن بأسرها، وقاتل الوليد بمن كان معه من المضرية، وأثخنت اليمانية القتل في مضر، إلى أن أحاطوا بالوليد بحصن البخراء من أرض تدمر، وذبحوه وحملوا رأسه على رمح فطيف به في دمشق، وبايع المضريون ليزيد بن الوليد طوعًا أو كرهًا، فاضطربت عليه البلدان، وسمي الناقص؛ لأنه نقص من عطاء الناس، ومما خطب به القوم يستميلهم «فإن وفيت لكم بما قلت، فعليكم بالسمع والطاعة وحسن المؤازرة، وإن لم أف فلكم أن تخلعوني إلا أن أتوب، وإن كنتم تعلمون أن أحدا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه ما قد بذلت لكم، وأردتم أن تبايعوه، فأنا أول من يبايعه معكم.»

وفي أيامه خرج يحيى بن زيد من آل البيت بأرض الجوزجان فوجه نصر بن سيار صاحب خراسان أحد رجاله، فقتل زيد في المعركة، ولما قتل الوليد خرج أهل حمص وأغلقوا أبواب المدينة، وأقاموا النواح والبواكي عليه، وطلبوا بدمه، قالوا:[1] «إن المضرية تلاومت فيما كان من غلبة اليمانية عليها، وقتلهم الخليفة الوليد بن يزيد، فدب بعضهم إلى بعض، واجتمعوا من أقطار الأرض، وساروا حتى وافوا مدينة حمص، وبها مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وكان يومئذ شيخ بني أمية وكبيرهم، وكان ذا أدب كامل ورأي فاضل، فاستخرجوه من داره وبايعوه، وقالوا له: أنت شيخ قومك وسيدهم فاطلب بثأر ابن عمك الوليد بن يزيد، فاستعد مروان بجنوده في تميم وقيس وكنانة وسائر قبائل مضر، وسار نحو مدينة دمشق فاقتتل جيشه مع جيش يزيد بن الوليد في ثنية العقاب وانهزم الحمصيون، واستولى يزيد على حمص، ووثب أهل فلسطين، وأحضروا يزيد بن سليمان بن عبد الملك فجعلوه عليهم، فدعا الناس إلى قتال يزيد الناقص فأجابوه إلى ذلك، وبلغ يزيد ذلك فأرسل إليهم جيشًا مع سليمان بن هشام بن عبد الملك، ووعد كبراء فلسطين ومناهم، فتخاذلوا عن صاحبهم، وأخذ سليمان البيعة من أهل طبرية والرملة ليزيد بن الوليد.»

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري.

ومات يزيد بن الوليد بعد ستة أشهر من خلافته، فخلفه أخوه وولي عهده إبراهيم بن الوليد، وقيل: إن أخاه لم يعهد إليه ولكنه استولى بغير عهد، وقيل لم يتم له الأمر، فكان قوم يسلمون عليه بالخلافة، وقوم يسلمون عليه بالإمرة، وأبى قوم أن يبايعوا له، وأقبل مروان بن محمد من إرمينية داعيا إلى نفسه في جيش من أهل الجزيرة، وكان القوم بايعوا لإبراهيم بن الوليد ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك من بعده، ودخل مروان دمشق فخلع إبراهيم نفسه وهرب وتوارى حتى أمنه مروان ودخل في طاعته، وكان أهل حمص لم يبايعوا إبراهيم، وكان مروان أخاه لأمه، ثم قتل مروان بعد أخذ البيعة له إبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج، ونبش عسكره قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية بدمشق، وسمي مروان بالجعدي نسبة للجعد بن درهم، الذي لقنه مذهبه في القدر والقول بخلق القرآن،[1] وأخذ مروان بحزمه يقضي على النازين على الخلافة كقضائه على فتنة ثابت بن نعيم الجذامي لما خرج عليه ببلاد طبرية والأردن، ودخلت خوارج اليمن مكة والمدينة يدعون لعبد الله بن يحيى الكندي الأباضي، فجهز مروان جيشًا وقاتل هؤلاء الخوارج في الحجاز، ثم في اليمن، وقتل في ذلك خلق كثير، ودخل داعية عبد الله بن يحيى طالب الحق إلى مصر فبايع له ناس من تجيب وغيرهم، فاستخرجهم عامل مروان فقتلهم، وقاتل مروان الضحاك بن قيس الشيباني الحروري، وكان قوي أمره في أرجاء الكوفة حتى بلغ جيشه - فيما قيل - مائة وعشرين ألفا، فأرسل إليه ابنه عبد الله وما زال يحاربه حتى قتله، ثم قتل من خالفوه من الحرورية، وكان ممن لحق بالضحاك بن قيس هذا سليمان بن هشام بن عبد الملك، وبايعه بعد أن اختلفت به الأحوال منذ خرج من سجن الوليد في عمان وثار فأخذ ما كان بها من الأموال، وأتى دمشق فلحق أولا بيزيد بن الوليد، فولاه بعض حروبه[2] إلى أن كسره مروان بن محمد بعين الجر، فهرب ثم استأمن إلى مروان وبايعه ثم خلعه، واجتمع عليه نحو سبعين ألفا وطمع في الخلافة، فبعث إليه مروان عسكرا فندم سليمان

---

(١) تاريخ أبي الفداء.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر.

على ما كان منه ومضى إلى حمص فتحصن بها، ثم التحق بالضحاك، ثم بقحطبة[١] بن شبيب أحد قواد العباسيين الذي تولى حرب ابن عمه مروان بن محمد فأحسن البلاء، فحسن موقع سليمان من أبي العباس السفاح العباسي، ثم شعر سليمان أن السفاح يريد قتله فخرج ولحق بالجزيرة، وكتب إلى مواليه وصنائعه فاجتمع إليه منهم خلق كثير، فبعث إليه أبو العباس بعثا ليقاتله فانهزم، ثم بعث إليه بعثا آخر فهزمه أيضًا، ثم بعث إليه بعثًا آخر فأسره وصلب على دار الإمارة بالكوفة.

رأينا كيف تلونت أحوال السياسة في عهدها الأخير، وكانت في الأيام الخالية متسقة مطردة، وبهذا التناحر بين أبناء العم على الخلافة، دب الفشل في جيش الأمويين، وقتلت هيبتهم في النفوس بهذا الانشقاق البادي بينهم، وكيف يستقيم لهم الأمر كما كان في زمن هشام مثلًا، وفي سنين قليلة خرج على خليفة الوقت من أهله بشر بن الوليد بقنسرين، وعمر بن الوليد بالأردن، ويزيد بن سليمان بفلسطين، وسليمان بن هشام بحمص وقنسرين، وبايعه أهل حمص بالخلافة، وخلعوا مروان بن محمد بعد أن قتل من عسكر سليمان بن هشام ثلاثون ألفًا، وكان في سبعين ألفًا.

ولما انهزم مروان بن محمد الجعدي في الزاب الصغير قرب الموصل أمام جيش بني العباس لم ينفعه تعصبه[٢] مع النزارية شيئا، بل غدروا به وخذلوه، ولما اجتاز ببلاد قنسرين وخناصرة أوقعت تنوخ بساقته وجاز حمص فناوشه أهلها القتال، وكان قاتلهم غير مرة وقتل من رجالهم ومثل بهم، ووثب به في دمشق الحارث بن عبد الرحمن الحرشي، فما آوته دمشق عاصمة آبائه، ورحل بجيشه إلى الأردن فوثب بها هاشم بن عمرو العنسي والمذحجيون - أي اليمانون جميعا - ثم مر بفلسطين فوثب به الحكم بن ضبعان لما رأوا من إدبار الأمر عنه.

وكان مروان لما وسدت إليه الخلافة ودخل دمشق ترك لأهل كل جند من أجناد الشام أن يختاروا عمالهم، فوقع اختيارهم على هؤلاء العمال الذين ثاروا بهم بعد على

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة.

(٢) مروج الذهب للمسعودي.

مروان، وخذلوه أي خذلان، وجعل مروان يستقري[١] مدن الشام فيستنهض أهلها، فيروغون عنه ويهابون الحرب فلم يسر معه منهم إلا قليل، بل لقد انقلب عليه من كان مواليًا لدولته، وقتل أهل مصر واليهم، وقتل أهل حمص واليهم، واكتفى أهل المدينة بإخراج عاملهم، وخرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة، فانهزم ومضى إلى فارس فغلب عليها وعلى أصبهان، والفتنة انتشرت في أنحاء البلاد كلها حتى انهزم مروان وهبط مصر، فلحق به الجيش العباسي فقتل في بيعة في بوصير من أرض الصعيد وبه انحل ملك الأمويين في الشرق.

أهم الأسباب التي عجلت القضاء على ملك بني أمية تحكم أهواء المتأخرين من الخلفاء في قوادهم العظام، فابتعد العارفون الصادقون عن الخدمة، ودخل الأغمار الأغرار، أبعدوا أولياءهم، كما قال أبو مسلم الخراساني، ثقة بهم، وأدنوا أعداءهم تألفًا لهم، فلم يصر العدو بالدنو صديقًا، وصار الصديق بالبعاد عدوًا، ومنها إلقاء بذور الخلاف بين النزارية والمضرية، وقيس ويمن، واعتصام خليفة بهذا، وآخر بذاك، فمروان بن محمد اصطفى قيس عيلان وانحرف عن اليمن، وباداها العداوة فصارت[٢] عليه إلبا، وله حربا، وما عطف بنو أمية على العراق وخراسان العطف المطلوب فظاهروا غيرهم، وكان تنازع رؤساء العرب في خراسان على الولاية، وانقسام الجيش إلى مضري ويماني من العوامل أيضًا في ظهور أعداء الأمويين عليهم، ثم إن الأمويين توسعوا في الفتوح، حتى اتسعت دائرة ملكهم إلى ما لم تبلغه دولة الرومان، فقد استطاعوا أن يقضوا على الطالبيين الذين نازعوهم سلطانهم في الأقطار القريبة من دار ملكهم، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على رجل من الخوارج الصفرية اسمه ميسرة لما قدمه البربر في شمالي إفريقية سنة ١٢٢ وبايعوه بالخلافة، وخوطب في طنجة وما إليها بأمير المؤمنين، هذا والأمويون كانوا في أوج سلطانهم.

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري.

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودي.

كانت الدولة الأموية عربية صرفة برجالها وبكثير من أوضاعها، لم يتول القيادات والنيابات فيها إلا جماعة من أبنائهم، ومن أهل البيوتات العربية المعتمد عليها عندهم، وجيوشهم كلها من أصول عربية لم يمازجها غير قليل من البربر في شمال إفريقية والأندلس، «وكان أمر بني أمية نافذا في جميع العرب بعصبية بني عبد مناف حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقُتل، ولم يرد أمره، ثم اضمحلت عصبية بني أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا.»[١] وكان الأمويون على الأكثر أصحاب ثقافة عربية راقية فيهم المرونة السياسية والإدارية، تمرنوا على قيادة الجيوش وحكم الناس منذ عهد الرسول، وكان أكثر عماله منهم،[٢] ولم يكن في عماله ولا في عمال أبي بكر وعمر أحد من بني هاشم، وأثبت الأمويون كفاءتهم الحربية والسياسية منذ قاتلوا الروم يوم الريموك في الشام، فكان نساؤهم وبناتهم يقاتلن مع الرجال، وما فتحت من كور الشام مدينة إلا وجد عندها رجل منهم ميتا، فكان من الطبيعي أن يحبهم الشاميون ويستميتوا في نصرتهم لأول أمرهم، ومن الطبيعي أن تكون الشام لهم ولأعقابهم دار ملك، ومبعث عزة وسلطان، ومن الطبيعي أن يمتد ظلهم هذا الامتداد العظيم في المشرق والمغرب.

امتد ملكهم من سواحل الأطلنطي إلى بلاد الصين، ومن جبال القوقاز وما وراءها[٣] إلى خط الاستواء وما وراءه، ودخلت في الإسلام في عهدهم أمم كثيرة من السلالة السامية (العرب والسريان والكلدان)، ومن السلالة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان)، ومن السلالة الآرية (الفرس واليونان والإسبان والأهاند)، ومن السلالة التورانية (الترك والتتار)، وأمست تتلى آي القرآن في سمرقند كما تتلى في قرطبة،[٤] ويتلاقى الهندي مع السوداني في مكة للحج، وكلاهما يدين لبني أمية،

(١) مقدمة ابن خلدون.

(٢) النزاع والتخاصم للمقريزي.

(٣) الحضارة الإسلامية لأحمد زكي.

(٤) حماة الإسلام لمصطفى نجيب.

وأخذت الجزية من النوبة كما قررها عمر بن الخطاب، ومن الهند والصين على ما قدرها قتيبة، وأصبحت دمشق في نظر المسلمين كرومية في نظر أهل النصرانية.

وصعب في عهد خلفائهم قيام دولة شيعية، على أن الشيعة كانت تعمل منذ طمعت نفس آل أبي طالب في الخلافة، محتجين بأن الرسول أوصى بالخلافة لعلي يوم الغدير بالنص، وأنه وآله معصومون، وأنه مصيب في كل أحواله، وأنه ضل كل من لم يبايعه من الصحابة، ولم تجد هذه الدعوى أنصارًا كثارًا لها في المسلمين، وكانت الغلبة للجماعة، والأمم تحكم في كل عصر بسوادها الأعظم، وبصفات خاصة في الفاتحين والمتغلبين، وهذه الصفات كانت متوفرة فيمن تولوا بعد الراشدين، واستمات الشيعة في تحقيق أمنيتهم في الخلافة، فمزق بهذا السبب شمل العرب والإسلام أو كاد، وجرت حروب أبيحت[1] بسببها الأموال والدماء، وتشعبت منها آراء ومذاهب، وسرى الاعتقاد بالمهدي المنتظر عند الشيعة إلى أهل السنة، وباسمه قامت أو حاولت أن تقوم دول في المغرب في القرون اللاحقة.[2]

وما فتئ الفريقان المتخاصمان يلبسان خلافاتهم على الخلافة ثوبا دينيا، وما وجد الفريق المقهور حرجا في الاختلاق على خصمه وتجسيم غلطاته، وكان هذا يتطلب

---

(١) مقدمة ابن خلدون.

(٢) عالج ابن خلدون في فصل ضافٍ عقده في مقدمته حل مسألة المهدي، وقال فيها بعد إيراد أقوال المحدثين: فهذه جملة الأحاديث التي أخرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان، وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه، قال: إن الإسماعيلية من الشيعة جاءوا يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول، وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع من التناسخ، وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم، وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستدلين بأحاديث المهدي، وأن هذه المعتقدات انبعثت من قول الإمامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي، والقول بإمامته، وادعاء الوصية له بذلك من النبي، والتبرؤ من الشيخني، ثم القول بالإمام المعصوم. قال: وحمل بعض المتصوفة حديث «لا مهدي إلا عيسى»، أن لا يكون مهدي إلا المهدي الذي نسبته إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم النسخ، إلى كلام من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان، بأدلة واهية، وتحكمات مختلقة، فينقضي الزمان ولا أثر لشيء من ذلك، فيرجعون إلى تجديد رأي آخر منتحل، كما تراه من مفهومات لغوية، وأشياء تخيلية، وأحكام نجومية، في هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر.

رضاه بكل حيلة، ويعرف له مكانته وقرابته، حتى اضطر الأمويون بعد حين أن يعاملوا خصومهم بالشدة، والخصمان في نظر التاريخ من البشر، يعشقان الدنيا ويقاتلان عليها المنافس، ولا ينظر في التنظير بين الفريقين، إلا إلى الأثر الذي أثره كل منهما في كيان الأمة.

وخرج أعداء الأمويين في التشنيع على أعدائهم، عن حد الاعتدال، فراحوا يخرجونهم عن الملة، وهم مساهموهم في خدمة الدين، بل لقد بذوهم في نشره، وبسط سلطان أهله على العالمين، وما أورثت هذه الخصومات الدنيوية غير تأريث الأحقاد، وفصم عرا الوحدة، والسير في طريق ردْب،[1] ما انتهت بغير الإحن والمحن على طول الزمن، سالت الدماء كالأنهار، وقتل ولاة الأمر في الدولة جماعة الشيعة والخوارج بدون توقف، والأمويون كغيرهم من أرباب الدول، لا يرون سلامتهم إلا في قتل من يناصبهم العداء، ولا يتهاملون في القضاء على من يخرج على خلفائهم.

وعجيب في مثل هذه الدولة وبنيانها قائم على العدل واللين ممزوجا بشدة، وقد توفرت لها عامة أسباب البقاء، وعملت للأمة أعمالا لم توفق إليها دولة إسلامية بعدها، ألا يطول عمرها كثيرا، وقُضي عليها على أيسر سبب وهي في معظم قوتها.

وقد علل أسباب انقراضها باحثان في تاريخها ربما كانا على صواب فيما ارتأياه، قال فال:[2] إن وفاة هشام زعزعت أركان الدولة الأموية، فثارت ثورات أوقد نارها تحريض الشيع المخالفة ودعاتهم، وكان من مظالم الولاة وتنازع الأمويين بينهم ما عجل سقوطهم. ومن أسباب الضعف أن يتعاقب على الخلافة في سنة واحدة ثلاثة خلفاء، الوليد الثاني ويزيد الثالث وإبراهيم، وكان حظ محمد والخلفاء الأول كحظ مملكة الكارولنجيين، توسعت فتوحها في العالم القديم، وانتهت بأن تزرعه بالأنقاض المنتثرة منه، والعوامل في انحلالها كالعوامل في تلك المملكة، فتن داخلية من أجل الملك، ميل الرؤساء إلى خلع ربقة الطاعة، نقمة العناصر والجنسيات ودعاة القوميات.

---

(١) الردب الطريق الذي لا ينفذ.

(٢) التاريخ العام للافيس ورامبو.

وقال ليفي ديلافيدا:[1] لا يكفي فساد الوليد الثاني لسقوط الدولة الأموية، بيد أن الوليد هيأ انحلال الدولة بعهده إلى ولديه، وما استطاع الوليد ولا يزيد الثالث، ولا أخوه إبراهيم وضع حد للفوضى، وضعف الإشراف على القاصية واستولى الخارجي الضحاك بن قيس الشيباني على الكوفة، وقام مروان بن محمد القيام المحمود في السنين الثلاث الأولى، بجيش دربه أيام ولايته إرمينية وظهر به على الروم، فذكر بعمله أعمال جده وسميه، وأعمال عبد الملك بعده ببلائه الحسن في توحيد المملكة، إلا أن حاله لم تكن تشبه حالهما، وكان عمله شاقًا؛ ذلك لأن البيت الأموي كان قد دخله الوهن، وجفت فيه مادة النشاط أو كادت، وأيقن أعداؤه بنجاح الدعوة للدولة الجديدة، وما كان مروان أمام جيوش مرتجلة، كما كان الشأن في جند ابن الزبير، والعصابات المستبسلة من العلويين، بل كان أمام جيش منظم اعتاد حرب الترك، كان أمام جيش فارسي دربه أبو مسلم الخراساني. هذا وما استطاع الأمويون أن يجعلوا المملكة جسمًا واحدًا متماثلًا، وكذلك قصر باع العباسيين بعدهم في هذا السبيل، وكانت مسألة استخلاف الخلفاء في العهدين الأموي والعباسي من المشاكل الصعبة الحل، تتجدد غوائلها كلما مات خليفة.

(١) معلمة الإسلام، الأمويون.